الحالة سيقع في نظرة تأويلية ميكانيكية ليس وراءها طائل، لأن أقصى ما ستنتهي إليه هو إدراكُ علاقة التشابه القائمة بين الواقع، وعالم الرواية(*).

بينما يقتضي الموقف الآخر أن يبحث الناقد في العلاقات المتشابكة بين مختلف الإديولوجيات دون أية إحالة على الواقع، ويعمل في الوقت نفسه على تنقية الرواية من تلك الشوائب المشوِّشة من أجل أن يكتشف في النهاية الإديولوجية الخفية المعبِّرة عن صوت الرواية.

وعلى الرغم من الوعي النسبي، الذي تميزت به خاتمة الكتاب، تجاه هذا الفرق الجوهري فإن مجموع التحليل سار في الغالب وفق النظرة الإنعكاسية؛ أي وفق مقارنة محتوى الروايات بالعالم الواقعي.

التأويل وسوسيولوجية المحتوى (قضية الانعكاس)

إن الطموح الذي تم التعبير عنه مؤخراً في كتاب «الرواية والواقع»، ويتمثل، في استخدام التحليل كأداة للتوصل إلى إديولوجيا الرواية أو إلى رؤيتها الخاصة، لا نجد له تحققاً فعلياً في جانب التطبيق. وهكذا تمضي أغلب محاولات التأويل في اتجاه عقد مقارنة بين محتوى الروايات، ومحتوى الواقع. ونقدم هنا أمثلة موضِّحة هذا الجانب:

● بعد أن يلاحظ الناقد بصدد دراسة رواية صراخ في ليل طويل لجبرا إبراهيم جبرا بأنّها تجمع معسكرين من الشخصيات: «معسكر أنصار الحياة القديمة - الاقطاعيون (. . .) ومعسكر أصحاب العقلية الجديدة» (ص: 28)، يرى أنه: «من خلال العلاقة بين هذين المعسكرين تنسج الرواية أحداثها، وحواراتها، لتبدو بمشكلتها وقضيتها الأساسية - (. . .) **وكأنها تعالج مشكلة المجتمع العربي، وهو يتحرك جاهداً، للخروج من نمط حياة وعقلية القرون الوسطى**» (ص: 28).

● وفي السياق نفسه يعتبر الناقد أن الرواية تجعل ذلك الصراع بين المعسكرين شبيهاً بالصراع بين الشرق، والغرب، لذلك يرى أن الرواية: «تقارب مشكلةً من أهم مشكلات الحياة العربية الجديدة، ومن أهم مشكلات الأدب العربي الحديث، وهي مشكلة لقاء الشرق بالغرب» (ص: 30). ونلاحظ أن لغة الناقد تتكيف أيضاً مع طبيعة تعامله مع الرواية في علاقتها بالواقع، فقد أصبحت الرواية وسيلة لمقاربة مشاكل الحياة العربية، وكأنها عبارة عن بحث سوسيولوجي.

● وتبدو المقارنة الانعكاسية المرآوية بشكل واضح عندما يدرس الناقد رواية «عودة الطائر إلى البحر» لحليم بركات:

(*) نسمح لأنفسنا بهذه الملاحظة لأن منهج الناقد في الجانب النظري يتجاوز هذه النظرة الميكانيكية.